بر الوالدين ووجوب طاعتهما وبخاصة في ارتداء الحجاب :

قول الله تعالى :

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ الإسراء: ٢٣ - ٢٤.

" والبر للوالدين يكون بحسن الصحبة والعشرة واللطف في المعاملة ، هذا يقتضى طاعتهما وعدم معصيتهما [1] " ، وقد قرن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الإحسان إلى الوالدين بتوحيده، لعظم حق الوالدين على الولد لأنهما السبب في وجوده وحسن تربيته والعناية به وبخاصة عندما كان صغيرا .

- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحسن الناس بحسن صحابتى ؟ قال أمك . قال: ثم من ؟ قال أمك. قال: ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال : أبوك، رواه الشيخان.

- وروى الترمذي : عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : سمعت رسول الله ﷺ قال : " رضا الرب في رضا الوالد وسخط الرب في سخط الوالد "، " الوالد أوسط أبواب الجنة فإن شئت فاضع ذلك الباب أو احفظه ".

- في رواية لمسلم قال : أقبل رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد ابتغى الأجر من الله ، قال : فهل من والديك أحد حي؟ قال: نعم بل كلاهما حي ، قال : فتبتغى الأجر من الله ؟ قال: نعم. قال: فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما .

- وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلا قال يا رسول الله ما حق الوالدين على ولدهما؟ قال هم جنتك ونارك . رواه ابن ماجه .

---

(1) البر والأخلاق في السنة النبوية . محمد هشام الديب ص 7

obeikandl.com

وقال القرطبي في تفسيره لهذه الآية ، وتأكيده على وجوب طاعة الوالدين ، ما يلي : [1]

عقوق الوالدين مخالفتهما في أغراضهما الجائزة لهما ، كما أن برهما موافقتهما على أغراضهما وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه ، إذا لم يكن ذلك الأمر معصية وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح في أصله ، وكذا إذا كان من قبيل المندوب ، وقد ذهب بعض الناس إلى أن أمرهما بالمباح يصيره في حق الولد مندوبا إليه، وأمرهما بالمندوب يزيده تأكيداً في ندبته .

روى الترمذى عن ابن عمر قال : كانت تحتى امرأة أحبها ، وكان أبي يكرهها فأمرني أن أطلقها فأبيت ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال : " يا عبد الله بن عمر طلق امرأتك " قال هذا حديث حسن صحيح .

ثم ذكر القرطبي ، أنه يجب على الولد الإحسان إلى الوالدين وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ البقرة: ٨٣.

والاحسان إلى الوالدين يشمل طاعتهما ، وتقديم كافة ما يستطيعه الإنسان من خير إليهما ، فقال [2] :

" أي وأمرناهم بالوالدين إحسانا ، وقرن الله عز وجل في هذه الآية حق الوالدين بالتوحيد، لأن النشأة الأولى من عند الله ، والنشىء الثاني وهو التربية من جهة الوالدين ، ولهذا قرن تعالى الشكر بهما بشكره فقال : " أن أشكر لي ولوالديك " والإحسان إلى الوالدين، معاشرتهما بالمعروف، والتواضع لهما ، وامتثال أمرهما ، والدعاء بالمغفرة لهما بعد مماتهما، وصلة أهل ودهما .

وقد فصل الفخر الرازى [3] في سبب الإحسان إلى الوالدين، فقال : إنما أردف عبادة الله بالإحسان إلى الوالدين لوجوه :

أحدها : أن نعمة الله تعالى على العبد أعظم النعم فلابد من تقديم شكره على شكر غيره، ثم بعد نعمة الله فنعمة الوالدين أعم النعم، وذلك لأن الوالدين هما الأصل والسبب في كون

---

(1) الجامع لأحكام القرآن ج 10 ص 238 ، 239 .

(2) المرجع السابق ج 1 ص 48

(3) التفسير الكبير للفخر الرازى ج2 ص 165 ، ص166 .

الولد ووجوده كما أنهما منعمان عليه بالتربية، وأما غير الوالدين فلا يصدر عنه الإنعام بأصل الوجود بل بالتربية فقط فثبت أن إنعامهما أعظم وجوه الإنعام بعد إنعام الله تعالى .

ثانيها: أن الله سبحانه هو المؤثر في وجود الإنسان في الحقيقة والوالدان هما المؤثران في وجوده بحسب العرف الظاهر فلما ذكر المؤثر الحقيقي أردفه بالمؤثر بحسب العرف الظاهر .

ثالثها: أن الله تعالى لا يطلب بإنعامه على العبد عوضاً البتة بل المقصود إنما هو محض الإنعام والوالدان كذلك فإنها لا يطلبان على الإنعام على الولد عوضاً مالياً ولا ثواباً فإن من ينكر الميعاد يحسن إلى ولده ويربيه ، فمن هذا الوجه أشبه إنعامهما إنعام الله تعالى .

الرابع : أن الله تعالى لا يمل من الإنعام على العبد ولو أتى العبد بأعظم الجرائم فإنه لا يقطع عنه مواد نعمه وروادف كرمه وكذا الوالدان لا يملان الولد ولا يقطعان عنه مواد منحهما وكرمهما وإن كان الولد مسيئا إلى الوالدين.

الخامس: كما أن الوالد المشفق يتصرف في مال ولده بالاسترباح وطلب الزيادة ويصونه عن البخس والنقصان فكذا الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ متصرف في طاعة العبد فيصونها عن الضياع ثم إنه سبحانه يجعل أعماله التى لا تبقى كالشئ الباقي أبد الآباد كما قال (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة) .

السادس : أن نعمة الله وإن كانت أعظم من نعمة الوالدين ولكن نعمة الله معلومة بالاستدلال ونعمة الوالدين معلومة بالضرورة إلا أنها قليلة بالنسبة إلى نعم الله فاعتدلا من هذه الجهة والرجحان لنعم الله فلا جرم جعلنا نعم الوالدين كالتالية لنعم الله تعالى .

اتفق أكثر العلماء على أنه يجب تعظيم الوالدين وإن كانا كافرين ويدل عليه وجوه :

أحدها : أن قوله في هذه الآية (وبالوالدين إحساناً) غير مقيد بكونهما مؤمنين أم لا ولأنه ثبت في أصول الفقه أن الحكم المرتب على الوصف مشعر بعلية الوصف فدلت هذه الآية على أن الأمر بتعظيم الوالدين لمحض كونهما والدين وذلك يقتضى العموم وهكذا الاستدلال بقوله تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) .

ثانيها : قوله تعالى : (فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما) الآية وهذا نهاية المبالغة في المنع من إيذائهما ، ثم إنه تعالى قال في آخر الآية (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) فصرح بيان السبب في وجوب هذا التعظيم .

obeikandl.com

ثالثها : أن الله تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه كيف تلطف في دعوة أبيه من الكفر إلى الإيمان في قوله (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا) ثم إن أباه كان يؤذيه ويذكر الجواب الغليظ وهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يتحمل ذلك ، وإذا ثبت ذلك في حق إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ثبت مثله في حق هذه الأمة لقوله تعالى (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا) .

اعلم أن الإحسان إليهما هو ألا يؤذيهما البتة ويوصل إليهما من المنافع قدر ما يحتاجان إليه فيدخل فيه دعوتهما إلى الإيمان إن كانا كافرين وأمرهما بالمعروف على سبيل الرفق إن كانا فاسقين .

- يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾

البقرة: ٢١٥.

فعندما سأل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ عمن ينفقون عليهم ، ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الوالدين في أول من يجب على الإنسان نفقتهم، وشجعهم على ذلك في قوله تعالى " وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم" أي أنه يعلم هذا الخير الذي فعلتموه وهذا يعنى رضاء الله تعالى على المنفق وأنه سيجازيه خير الجزاء على ما أنفقت يداه عن ذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، وبخاصة الوالدين .

- وقد جمع الشيخ عبد الحميد كشك ، أضرار عصيان الوالدين ، فذكر منها :

1- لقد حرم الله عقوق الوالدين وكره ذلك .
2- أنه من أكبر الكبائر المهلك الموصل إلى الجحيم .
3- يمنع من التعطر بريح الجنة وشم شذاها .
4- لا يقبل أي عمل للعاق .
5- ينال العاق جزاءه في الدنيا قبل مماته من تحقير وفقر مدقع وأمراض وسخط أهله، وهو من عقاب الله أسرع .

openkanar.com

6- لعن الله ورسوله والناس والملائكة العاق .

7- سوء الخاتمة ويطمس الله على بصيرته وينزع منه الإيمان .

ولقد أسهبت – إلى حد ما – في بيان وجوب طاعة الوالدين ، ووجوب الإحسان إليهما وتقديم كل ما يستطيعه المرء ، من خير وصلة رحم وكل فعل حسن وكل قول كريم ، حتى يسدد جزء من دينه لهما ، وطاعة لله سبحانه وتعالى ولرسوله الكريم ﷺ .

وأتذكر الآن نصيحة أحد الصالحين[1] لأحد الشباب : " يا بنى ، أنا لا أحذرك من أن تفعل ما يغضب والديك – فهذا إثم كبير - ولكن أحذرك من أن تفعل شيئا يجعل قلبهما يتغير من ناحيتك".

فلو أرادت الفتاة أن تنتقب ، ورفض والداها ذلك، وطلبا منها الاكتفاء بالحجاب الشرعي، فاعتقد في ضوء الخلاف الذى أشرنا إليه آنفا في مدى فرضية النقاب ، وأن كثيراً من فقهاء السلف والخلف رأوا أن النقاب ليس مفروضا وليس مرفوضا ، فضلا عن الأسباب النقلية والعقلية العديدة التى سبق الكلام عنها ، التى تؤكد إباحة كشف الوجه والكفين فإن طاعة الوالدين تكون واجبة، ولا يجوز الاستدلال بأنه " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" إذ أن هذا الاستدلال في غير موضعه، وهو كلمة حق يراد بها باطل ، إذ أنه ثبت بالتفسير الصحيح لآيات القرآن والأحاديث النبوية الصحيحة ، أن النقاب ليس فرضا ولكنه مكرمة لمن تريد ذلك ، إنما طاعة الوالدين والإحسان إليهما وتقوية روابط الصلة بهما ، هي الواجبة التى لا خلاف عليها ، فالتضحية بالواجب المؤكد في سبيل أمر آخر مختلف عليه ، تفكير غير سليم ، وفيه شئ من التشديد على النفس ، وتكليفها بأكثر مما أمر الله وقد سبق أن روت كتب السيرة أن نفرا من الصحابة عزموا على الصيام المستمر بدون إفطار أو الامتناع عن أكل اللحم أو عدم الزواج للانقطاع للعبادة ، وعندما علم الرسول بذلك غضب غضبا شديدا ، ونهى تماما عن ذلك ، وقال ما معناه : إننى أصوم وأفطر وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن أعرض عن سنتى فليس منى .

---

(1) الشيخ عبد المهيمن الفقى مدير إدارة البحوث والنشر الأسبق .

openkandil.com

فلنحذر من غضب والدينا علينا، بل نحذر من تغير قلبيهما، ونلتزم بأوامر الدين الإسلامي الحنيف ، ولنكون في منتهى الحرص عندما نحلل أو نحرم شيئا ، ولنحذر من قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ النحل: ١١٦.

واختتم كلامي في هذا الموضوع برواية وردت عن زين العابدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد كان مشهوراً بحبه الشديد لأمه وطاعته لها وبره بها ، وقيل له :

" إنك من أبر الناس بأمك فلماذا لا تأكل معها في طبق واحد ؟ قال : إني أخاف الله أن تسبق يدى يدها إلى ما تسبق عيناها إليه فأكون قد عققتها " .

obeikandl.com